شعر البارودى في منفاه

[تتمة ما نشر فى العدد الماضى]

الأستاذ أحمد أحمد بدوى

كان البارودى فى أوّل عهده بالنفى متحفزاً متوثباً ، بل كان ثائرا مهددا ، يرى أنه لم يقترف ما يستحق النفى من أجله ، غير أنه دافع عن دينـه وعن وطنه ، وليس ذلك ذنبا يستحق أن يحاسب عليه ويغترب ، وهو لذلك غير نادم على ما قدّم ، وغير خاطىء فيما فعل ، وحسبك أن تقرأ هـذه الأبيات لترى فيها الثورة النفسية العنيفة :

ومن عجائب مالاقيت من زمنى ... أنى متيت بخطب أمره عجب
لم أقترف زلّة تقضى على بمـا ... أصبحت فيه فاذا الويل والحرب
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ... ذنب أدان به ظلما وأغترب
فلا يظن بى الحـاد منـدمة ... فإننى صـابر فى الله محتسب
أثرنت مجدا فلم أعبأ بما سلبت ... أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
إنى امرؤ لا يرد الخوف بادرتى ... ولا يحيف على أخلاقى الغضب
وما أبالى ونفسى غير خاطئة ... إذا تخرص أقوام وإن كذبوا

بل إن شعره الذى قاله فى تلك الفترة الأولى ليدل على أنه كان يؤمّـل قيام ثورة تعيد إليه مجده ، وكان قوى الثقة فى أن أنصاره سيرغمون خصومه بقوة السيف على أن يعود البارودى إلى السلطة التى ترضاها العلا ، نرى ذلك حين يقول :

فتـام نسرى فى دياجير فتنة ... يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يد الجـور إن سطت ... عليـه ، فلا يأسف إذا ضاع مجـده
ومن ذَلّ خوف الموت كانت حيـاته ... أضر عليـــه من حمـام يؤدّه
وأقتل داء رؤية المرء ظالمـا ... يسىء ويتلى فى المحـافل حمده
عـــلام يعيش المرء فى الدهر خاملا ... أيفرح فى الدنيـــا بيوم يعـده
وإنى امرؤ لا أستكين لصولة ... وإن شد ساقى دون مسعاى قيده
ولابد من يوم تلاعب بالقنا ... أسود الوغى فيه وتمرح جرده
يمزق أستار النـواظر برقه ... ويقرع أصداف المسامع رعده
تدير أحكام الطعان كهوله ... وتملك تصريف الأعنة مرده
قلوب الرجال المستبدة أكله ... وفيـض الدماء المستهلة ورده
أحل صدر النصل فيه سريرة ... تعـــهّد لأمر لا يحاول رده
فإما حياة مثلما تشتهى العـلا ... وإما ردى يشفى من الداء وقده

غير أن الانتظار قد طال ولم تصل إليه أنباء تقوى فيه هذا الأمل ، فسمعناه يستنجز الوعد ، ويحث الصحب قائلا :

فياسراة الحى ما بال نصرتكم ... ضاقت على وأنتم سادة نجب
أضعتمونى وكانت لى بكم ثقة ... متى خفرتم ذمام العهد يا عرب

والبيت الثانى يحمل كل معانى الألم وخيبة الأمل .

وقد اختلفت بذلك نظرته إلى السيف ، فبعد أن كان يهدد بامتشاق الحسام ، وشن الثورة على الخصوم ، رأى — وقد خذله ناصروه — أن سيفه ليس له غناء فى يده ولا قيمة ، ولنصت إلى ما دار بين الشاعر وسيفه من حديث حين قال :

ولا صاحب غير الحسام منوطة ... حمائله منى على عاتق صـــلد
أقول له والجفن يكسو نجاده ... دموعا كرفض الجمان من العقد
لقد كنت عونا لى على الدهر مرة ... فمـالى أراك اليوم منثلم الحد

فقال : إذا لم تستطع سورة الهـــوى
وأنت جليد القوم ما أنا بالجـــلد
وهل أنا إلا شقة من حديدة ... ألح عليها القين بالطرق والحد
فما كنت لولا أننى واهن القوى ... أعلق فى خيط وأحبس فى جلد
فدونك غـيرى فاستعنه على الجوى
ودعنى من الشكوى فداء الهوى يعدى

فهذا السيف الذى كان سبب مجده الحربى يراه الآن قطعة من الحديد ضعيفة واهنة القوى ، لا تستطيع أن تقدم له يدا ، ولا أن تساعده .

لم تنزل بالبارودى نفسه فيلحف فى الاعتذار ، ويلح فى الاسترحام كما فعل سواه ، ولعله طلب أن يعود إلى وطنه موفور الكرامة ، متبرئاً من تهم ألصقها به حاسدوه ، كما يمكن أن نلمح ذلك فى قوله :

نظراته الخيالية وهى اعتبارات فيلسوف لاسياسى ولا مشترع[1] لكن الدكتور يقول : « نحن نؤيد هذا القول بشواهد فى التاريخ ، معتمدين على النظر إلى تطور الإنسانية خلال العصور الطويلة » والبحث فى هذه الشواهد وهذا النظر مؤخّر إلى عدد آت

محمد توفيق السحرار

(١) من « تاريخ الأدب العربى » لصاحبه ك . هيار (Clément Houart) .

يا عاصبين علينا ، هل إلى عدة بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
قد كنت أحسبنى منكم على ثقة حتى منيت بما لم يجر فى بالى
لم أجن فى الحب ذنباً أستحق به عتبا ، ولكنها تحريف أقوال
ومن أطاع رواة السوء نفره عن الصديق سماع القيل والقال

ولكن شعره الثائر وما عرف عنه من حب المجد والسمى إلى العلا ، لم يكونا مما يدفع ولاة الأمر إلى الصفح عنه والمغفرة ، فاستسلم إلى حكم القدر ، وسلم نفسه لله ، ولجت به الرغبة فى زيارة الرسول الكريم ، وأنشأ الشعر فى مدح النبى والثناء عليه ، ولكنه مع ذلك لم يسل يوما مجده ووطنه ، بل أخذ يبث شعره شوقه إلى ملاعب شبابه وصباه ، وما كان له من سلطان وجاه ، فهو لا ينفك ذاكرا الماضى مشتاقا إليه ، يحن إلى ملاعب الروضة وحلوان ، وكان كلما تقدمت به السن ، خلف الشباب وراءه ، فتلفت يبكى هذا العهد السعيد الذى قضاه فى وطنه متمتعا بالأهل والأصدقاء والأحباب والسلطان ، ويوازن بينه وبين ما صار إليه من ضعف وهوان ، وقد وصف هذه النفسية القلقة المشتاقة حين قال :

أحن إلى أهلى ، وأذكر جيرتى وأشتاق خلانى وأصبو للاقى
فلا أنا أسلو عن هواى فأنتهى ولا أنا ألقى من أحب فأشتفى

أو حين تحدث فى لهفة وشوق قائل إلى النيل قائلا :

فهل نهلة من جدول النيل ترتوى بها كبد ظمآنة ومشاش

أو حين يذكر الماضى متأسفا على حاضره :

لله أيام بهم سلفت لو أنها بالوصل تأتنف
إذ لمتى فينانة ويدى فوق الأكف وقامتى ألف
أجرى على إثر الشباب ولا يمشى إلى ساحاتى الجنف
إن سرت سار الناس لى تبعا وإذا وقفت لحاجة وقفوا
فالآن أصبح طائرى وقع بعد السمو وصيوتى أسف

بل لقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح يتمنى العودة إلى الوطن ولو عاش فيه فقيرا معدماً .

أما حزنه على الشباب وبكاؤه عليه وألمه من الشيب وما ناله فيه من الضعف ففى كثير من قصائد منفاه ، وها هوذا يصور لنا نفسه فى عزبته شيخاً أخلق الشيب جدته ، ولوى شعر حاجبيه على عينيه ، وضعف بصره فصار يرى الشىء كأنه خيال ، وإذا دعى لم يتبين مصدر الصوت ، وإن أراد النهوض قعد به الضعف فلا يستطيع .

كيف لا أندب الشباب وقد أصبحت كهلا فى محنة واغتراب
أخلق الشيب جدتى وكسانى خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبى على عينى حتى أظل كالمداب
لا أرى الشىء حين يسنح إلا كخيال ، كأننى فى ضباب
وإذا ما دعيت حرت كأنى أسمع الشىء من وراء حجاب
كلما رمت نهضة أقعدتنى ونية لا تقلها أعصابى

كان البارودى كثير التأمل فى حوادث حياته ، ما مضى منها وما حضر ، وكثيراً ما كان يفكر فيما آل إليه أمره ، فيسلى نفسه حينا بأن الحظ يلعب دوراً كبيراً فى النجاح ، ولا ذنب له إن جافاه الحظ فلم ينجح ، وحينا يعود باللائمة على الحياة الدنيا ، فهى لئيمة قلب ، لا تحسن اليوم إلا لتسىء غداً ، وأحيانا يسوق الأمثال والحكم ليجلب إلى نفسه الهدوء والراحة ، فالسيادة لها تكاليفها والمفاخر تقوى هموم قلبه ، وطالب العلا يعرض نفسه للحلو والمر إلى غير ذلك ، مما تجده منثوراً فى قصائد منفاه ، وإذا ذكر ثروته وكيف جرد منها قال :

أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفساً وهى عالية ولا يشيد بذكر الخامل النشب

وكان يسبغ على نفسه الرضا والطمأنينة راحة ضميره وإيمانه بأن سيرته ليس فيها ما يزرى أو يغض من قيمته :

راجعت فهرس آثارى فلاحت بصيرتى فيه ما يزرى بأعمالى

وأنه لم يبع ضميره بالمال ولم يفرط فيما يعتقد أنه واجب عليه ، مؤمناً بأن التاريخ سينصفه ، وسوف يبين الحق يوماً للناظرين ، قال فى إحدى قصائده :

ولو رمت ما رام امرؤ بحياته لصيرنى قسط من المال غامر
ولكن أبت نفسى الكريمة سوأة تعاب بها والدهر فيه المعايب
وسوف يبين الحق يوماً لناظر وتنزو بعوراء الحقود السرائر

كان نفى البارودى إلى جزيرة سيلان ومعيشته بين القوم الذين وصفناهم له هذا الأثر الحزين فى كل شعره الذى قاله فى منفاه ، ولم تستطع طبيعة هذه البلاد — وقلبه ملىء بالحزن والأسى — أن توحى إليه بشعر فرح إلا قصيدة واحدة يصف فيها روضة بكندى ، ويوماً قضاه مع رفقة بتلك الروضة ، وتلمح